

الدور المعرفي للفن في الجمالية العربية

بقلم الأستاذ: عمر بوساحة
أستاذ بجامعة الجزائر

ان كان علم الجمال او الجمالية (ESTHETIQUE) هو علم حديث النشأة "1" بكونه علما له ميدانه و موضوعانه الخاصة ، فإن التفكير الجمالي قديم لا نعرف له بداية محددة ، حتى و ان كنا ننسبه في كثير من الأحيان - كما نفعل بالنسبة للفلسفة أيضا. الى العهد اليوناني القديم الا اننا نعتقد ان حقيقته تتجاوز هذه الفترة بل هي مرتبطة بالبدايات الاولى لظهور التفكير لدى الانسان وذلك لاننا لا يمكن ان نتصور حياة انسانية من غير ان يشملها شئ من

التنظيم مهما كانت درجة التناسق والانسجام التي يمكن ان يكون عليها ولاشك ان أي تنظيم لابد ان يخضع الى مجموعة من القيم والافكار الجمالية.

لقد كان التراكم النظري والتطبيقي (أفكار جمالية - أعمال فنية) هو الذي وفر الشروط اللازمة للقرن الثامن عشر فسمح بتميز هذا العلم و استقلاله عن بقية العلوم الأخرى.

ومن خلال هذا المنظور شاركت الفلسفة العربية - الاسلامية في فترة القرون الوسطى بقسط وافر من أجل بلورة أفكار هذا العلم و تحديد مجاله و كانت للفلاسفة أمثال : الكندي و الفارابي وابن سينا وابن رشد اسهامات معتبرة في تعميق النظر في موضوعات هذا العلم التي كانت مختلطة بموضوعات فلسفية أخرى.

و من بين الموضوعات التي تناولها الفلاسفة العرب - المسلمون بالنظرو التمحيص موضوع الدور الاجتماعي للفنون وقد أولوا لهذا الأمر عناية خاصة لأن الفن على حد قولهم لم يكن للمتعة و الترف أو التسلية في اوقات الفراغ بل أن الفن يحمل رسالة نبيلة تتمثل في دوره الاجتماعي الهام.

والفن وأن تعددت مهامه بالنسبة للفلاسفة المسلمين ، الا أن أهم هاته المهام هي المهام الاخلاقية و المهام المعرفية التعليمية ، و تتمثل المهام الاخلاقية في ان يكون للفن المقدرة لدفع الناس الى فعل الفضائل و التحلي بها و الابتعاد عن

فعل الرذائل و تجنبها ، و ذلك بأن يصور لهم الفضائل في صورة جميلة ليدفعهم نحوها و يصور لهم الرذائل في صورة قبيحة لينفرهم منها.

أما المهام المعرفية التي أوكلها الفلاسفة للفن فتمثل في دوره التربوي التثقيفي للعامة من الناس و ذلك بتقريبه للمعارف و المفاهيم المجردة الى أذهانهم لضرورتها بالنسبة الى تحقيق السعادة التي ينشدونها لأن الغاية من وجود الانسان حسب الفارابي أن يبلغ السعادة القصوى "2" ، و لتحقيق هذه الغاية و جب أن يعمل الانسان الأشياء التي بوساطتها ينال بها السعادة ، ولأن الامكانيات الطبيعية للتعلم تختلف من انسان الى اخر فقد اختلفت طرق التعليم من جماعة الى اخرى تبعا لاختلاف طبائعهم.

وعن السبل التي يحصل بها ادراك العلوم لدى البشر يرى الفارابي انها تقوم "على ضربين أحدهما أن يعقل (الشئ) ذاته و الثاني يتخليل بمثاله الذي يحاكية" "3" و يخص الضرب الاول الفلاسفة و هم دون غيرهم الذين لهم القدرة على ادراك الأشياء كما هي موجودة عليه دون حاجة الى الاستعانة بأشياء تماثلها أو أمور تحاكيها. أما اكثرية ((الناس فلا قدرة لهم اما بالفطرة واما بالعادة على تفهم تلك الاشياء او تصورها فوئلك ينبغي ان تخيل اليهم بأشياء تحاكيها)) "4" والمحاكاة "5" هي جوهر الفنون و الاساس الذي تقوم عليه لدى الفارابي وغيره من الفلاسفة العرب - المسلمين.

و بالاعتماد على ما تقدم نلاحظ أن للفن دورا بارزا يلعبه في تعليم الجمهور والعامة من الناس لأشياء كثيرة يصعب عليهم تعلمها كما هي عليه في الوجود ويعود سبب اعتماد فلاسفتنا الفن طريقة لتعليم العامة من الناس الى القدرة التي يمتلكها هذا النشاط في جذب انتباه الناس وقدرته على السيطرة على عقولهم نظرا للمتعة التي يتركها في نفس المتلقي واللذة التي يحصل عليها من يوجه اليه هذا النشاط.

وقد أكد الفلاسفة العرب على جانب اللذة الجمالية التي يحدثها الاتقان في الصنعة ، وقد جاءت الاشارة الى هذه المسألة في أغلب كتاباتهم الخاصة بنظريتهم الجمالية. وقد عرفها الفارابي : "بأنها ادراك الملائم" (6) فالنفس الانسانية تجد في الترتيب و الاتقان الذي يقدم به عمل فني ما ملائمة لتطبيعتها لذلك فهي تحس إحساسا عجيبا به و تلتذ و تستمتع بما جاء فيه من جمال.

و قد فضل الفلاسفة العرب في فلسفتهم الجمالية الجمال الفني عن الجمال الطبيعي (ذهب هيغل في فلسفته الجمالية نفس المذهب) وذلك لما في الجمال الفني من معرفة وأفكار ، الشيء الذي لا نعثر عليه في الجمال الطبيعي فالجمال الطبيعي ، هو للمتعة بينما الجمال الفني هو للمتعة والمعرفة في الآن معا بل ان المتعة التي تحصل من المعرفة هي أفضل بكثير من أية متعة أخرى لأنها تعود بالفائدة والنفع على من يحصل عليها ونلاحظ ارتباط القيمة الجمالية

بالقيمة النفعية في الجمالية العربية ، فالنافع هو الأجل اذ النافع في غاية ما هو
الاجمل فيها ، يقول الفاربي : لا فرق بين أن يقال أنفع في غاية فاضلة وبين أن
يقال انفع واجمل فان الانفع والاجمل هو بالضرورة لغاية فاضلة والأنفع في غاية
فاضلة هو أجمل في تلك الغاية (7) ويصبح الجميل هنا هو الذي يحث عن القيام
بالأعمال الجادة التي تعود بالنفع والفائدة على الانسان ومن ثم تحصيل سعادته.
وقد دافع الفلاسفة العرب عن الفنون الجادة الصادقة التي تقدم خدمة
للمجتمع وأشاروا في غير ما موضع الى ان الغاية من المحاكاة ليست المتعة ألى
((اللعب)) بل الغاية منها هي أمور الجد (8) ، ومن بين أمور الجد هذه تعليم
الناس الذين لا قدرة لهم على تعلم الاشياء والحقائق كما هي عليه في الوجود.
ان المتعة التي تحققها المحاكاة تجعل المعاني والأفكار تقع في النفس أفضل
موقع وتصبح المتعة هنا وسيلة من الوسائل التي تعتمد من أجل جذب العامة الى
العلم والمعرفة وهو الشيء الذي يؤكده ابن سينا من خلال قوله : "وللمحاكاة
التي في الانسان فائدة ، وذلك في الاشارة التي تحاكي بها المعاني فتقوم مقام
التعليم وحتى ان الاشارة اذا اقترنت بالعبارة اوقعت المعنى في النفس ايقاعا جليا
وذلك لان النفس تنبسط وتلتذ بالمحاكاة فيكون ذلك سببا لأن يقع عندها الأمر
أفضل موقع (9) ولا تعد وظيفة المحاكاة في الجمالية العربية وظيفة أحادية بل أنها

قد تجعل المتلقي يقف ضد الموضوع المحاكي او معه نتيجة ما تنطوي عليه المحاكاة من تحسين أو تقييح.

أما عن الكيفية التي يتم من خلالها نقل المعلومات والمبادئ العامة نقلاً فنياً حتى يتسنى للعامة ادراكها والتعرف عليها ، فان الفلاسفة المسلمين يرون أنه يجب على المشرع التربوي - الذي هو بحسب خطابهم الفلسفي : الفيلسوف - أن يلجأ الى العلوم النظرية التي تمت معرفتها معرفة يقينية ويجتهد في وضع أمثلة لها تحاكيها تسمح بتقريب هذه العلوم الى عقول العامة من الناس ، ويجب ان يراعي في هذا الامر الاختلافات الثقافية بين أمة وأخرى وبين شعب وآخر بحيث تتم محاكاة هذه العلوم بالامور التي هي : " اعرف عندهم وقد يمكن ان يكون الاعرف عند كل واحد منهم غير الاعرف عند الآخر " (10) " فقد يقع ان تحاكي تلك العلوم لامة بغير المثالات التي تحاكي بها عند الاخرى لذلك وجب مراعاة الخصوصيات الثقافية للامم والبحث في ثقافتها عما يساعد على نقل هذه العلوم الى جمهور العامة نقلاً افضل تكون لهم فيه فائدة وتحصيل لانه قد يحصل ان تحاكي هذه العلوم النظرية الى أمة ما بمثالات لاتكون معروفة لديهم مما يفشل عملية النقل ويحدث نكوصاً لدى المتلقي من العلم والتعليم.

غير انه يجب الا يفهم من ان الاختلاف في الثقافة بين الامم والشعوب يعد عيباً او حاجزاً لمنع تقدم هذه الامم نحو سعادتها ، فقد يحدث ان توجه امم

فاضلة تختلف في مللها رغم كون افرادها يؤمون سعادة واحدة " ولذلك امكن - كما يقول الفارابي - ان تحاكي هذه الاشياء لكل طائفة ولكل امة بغير الامور التي يحاكي بها للطائفة الاخرى. فلذلك قد يكون امم فاضلة ومدن فاضلة تختلف مللهم وان كانوا كلهم يؤمون سعادة واحدة بعينها " (11).

ويقدر الفارابي وغيره من الفلاسفة المسلمين تقديرا عاليا دور الفنون في تعليم الجمهور وذلك لقدرة هذا النشاط على اصال المعارف والمعلومات الى الغالبية العظمى من الناس نظرا لطريقته الخاصة في تقديم هذه المعارف والمعلومات ، ويعتقد الفارابي ان "اكثر الناس الذين يؤمون السعادة انما يؤمونها متخلية لا متصورة وكذلك المبادئ سييلها أن تتقبل ويهتدى بها وتعظم وتحل انما يتقبلها اكثر الناس وهي متخلية عندهم لا متصورة " 12 " فالمتعة الجمالية الناتجة عن حسن المحاكاة تجعل من الفنون الوسيلة المفضلة عند اغلبية الناس في حصولهم على العلم والمعارف وقد يحدث ذلك في بعض الاحيان حتى للفلاسفة " 13 " .

كما يشير الفلاسفة العرب المسلمون الى نقطة اخرى ذات اهمية كبيرة وهي المتمثلة في الدور الذي يمكن ان يمثله الفن في تشكيل وعي الناس وتوجيهه بحيث نبهوا الى ان الفنون قد وظفت منذ القدم في تكريس العقائد والايديولوجيات فقد كان على الفنان ان يقوم بترسيخ تلك العقائد ونشرها على اوسع نطاق ، ونجد ابن رشد يقول في هذا الامر " الاقدمون من واضعى

السياسات يقتصرون على تمكين الاعتقادات في النفوس بالاقاويل الشعرية ، حتى شعر المتأخرون بالطرق الخطابية "(14)" ولعلنا لا نزال نلاحظ وجود هذا الامر حتى يومنا هذا . فمن الثابت ان الايديولوجيات المتصارعة في عصرنا تحاول ان تستفيد من الفن في بسط سيطرتها ونفوذها وان تستخدمه في تقوية وجودها في العالم والامثلة على ذلك كثيرة ، وقد تكون السينما الامريكية خاصة الحرية منها أفضل مثال على ذلك.

في ختام هذا المقال الذي نعتقد انه جاء سريعا ومهملا لكثير من الاشياء والامور التي تكلم عنها الفلاسفة المسلمون تخص دور الفن المعرفي ونحن اذا ثمننا هذه الاراء ، نعتقد انها كانت في طليعة الافكار الجمالية ابان المرحلة التاريخية التي عاشها فلاسفتنا غير انه يجب علينا ان نشير ايضا الى التقدم الكبير الحاصل في القرون التي تلت الحضارة العربية الاسلامية خاصة ما يحدث في العصر الذي نعيشه من تطور عاصف في كل الميادين الفكرية والعلمية وعليه فقد اصبحت جل الفلسفات سواء الحديثة منها او المعاصرة تنظر الى الفن على انه نشاط مستقل عن القيم المعرفية ، والقيم الاخلاقية ولم يعد ينظر الى هذا النشاط على انه وسيلة لتحقيق غايات او اهداف اجتماعية فقد تتعارض كثير من الاعمال الفنية في عصرنا الحالي مع القيم الاخلاقية والقيم الاجتماعية الاخرى ولكنها مع ذلك لن تفقد قيمتها الجمالية.

ونرى في الاخير انه على الرغم مما يمكن ان يقال عن الجمالية العربية في فترة القرون الوسطى سواء في جوانبهات الايجابية او السلبية فاننا لا نزال نحن عرب هذا العصر نبحث عن فكر جمالي لا نريده بالتأكيد ان يقيدنا بأفكار الفلاسفة ومفاهيمهم الخاصة ولكنه على الاقل ان يسمو بمشاعرنا وعواطفنا الى مستوى انساني نبيل لا ان يزيد في عمر تخلفنا وانحطاطنا كما هو واقع في كثير من الانواع الفنية السائدة عندنا ، ونحن واجدون عند اسلافنا كثيرا من الافكار التي تساعدنا على تحقيق بعض من آمالنا.

الهوامش

- 1 - مؤسس علم الجمال هو الفيلسوف الكسندر بومغارتن . BAUMGARTEN A (1714 - 1762) وهو ينتمي الى العقلانية الديكارتية.
- 2 - انظر الفارابي السياسات المدنية ، حيدر اباد الدكن طبعة اولى سنة 1346 هـ ص 47 . 48.
- 3 - الفارابي تحصيل السعادة ، طبعة اولى حيدر اباد الدكن 1354 هـ ص 40 .
- 4 - الفارابي السياسات المدنية ، حيدر اباد الدكن ط الأول 1354 هـ ص 56 .
- 5 - يعني مصطلح المحاكاة بوجه عام التقليد او المشابهة في القول ، او الفعل او غيرهما ينظر جميل صليبا المعجم الفلسفي ج 2، دار الكتاب اللبناني 1979 ص 394 .
- 6 - الفارابي كتاب الفصوص ، مطبعة حيدر اباد الدكن 1345 ص : 7 .
- 7 - الفارابي تحصيل السعادة ، حيدر اباد الدكن 1354 ص . 21
- 8 - الفارابي كتاب الموسيقى الكبير ص 1179 . 1180 . ينظر كذلك ابو بكر محمد بن زكريا الرازي ، رسائل فلسفية جمعها وصححها : ب. كراوس الجزء الاول مصر 1939 ص 62 . ينظر كذلك : ابن سينا فن الشعر من كتاب الشفاء، عبد الرحمن بدوي ص 179 .
- 9 - ابن سينا فن الشعر من كتاب الشفاء ، عبد الرحمن بدوي ص 171

- 10 - الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة طبعة ليدن 1892 ص 70 .
- 11 - الفارابي ، السياسات المدنية ص : 56 .
- 12 - المصدر نفسه ، 65
- 13 - ابن سينا فن الشعر من كتاب الشفاء عبد الرحمن بدوي ص : 173
- 14 - ابن رشد ، تلخيص كتاب ارسطور طاليس في الشعر ، د. محمد سليم سالم ص : 82 .

BIBLIOGRAPHIE

- 1- Descartes, René. Discours de la Méthode,
Paris : Ed. Sociales, 1637, Vème Partie.
- 2- Leibniz, Gettfried Wilhelm. Lettre à Corring,
Paris : Aubier-Montaigne, 1972, .
- 3- Kant, Emmanuel. Critique du jugement, Trad. Gibelin,
Paris : Vim, 1928.
- 4- Lalande, André. Vocabulaire technique et critique de la philosophie,
Paris : PUF, 1972.
- 5- Carrel, Alexis. L'homme, cet inconnu,
Paris : Ed. Plon 1935.
- 6- Monod, Jacques. Le hasard et la nécessité. Essai sur la philosophie naturelle de la biologie moderne, Paris : Ed. du Seuil, 1970.
- 7- Mohamed Iqbal : Reconstruire la pensée religieuse de l'Islam.
Librairie Maisonneuve, 1995,p.203